ضمن ما عنته ﴿زِينَتَكُمْ﴾؟ إنهما زينة في غير الصلاة، ولكن أدب العبودية في الصلاة يقتضي تركهما حالها إما لكونهما خلاف زينة الصلاة، أم زينة محظورة فيها فخذوا عنكم - إذاً - نعليكم واخلعوهما وكما قال الله لموسى: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[1] فالمروي عن رسول الله ﷺ أنه كان يلبسهما فيها ويأمر به، مفترى عليه فمضروب عرض الحائط.

وكما أن أخذ الزينة عند كلِّ مسجد محبور، كذلك في سائر الحالات ولا سيما في زيارة المؤمنين[2] أم ورقابة أعين الفاسقين.

﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ مما يحلّ لكم، ولكن ليس فوضى جزاف أن تبذروا أو تسرفوا لأنها من أموالكم، بل ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ أكلاً ولا شرباً زائداً عن الحاجة المتعودة، إسرافاً في كمّهما وكيفهما: وإسرافاً في أصلهما كأن يكونا محرّمين، فالأكل والشرب المحرمان هما من الإسراف مهما كانا قليلين، ومنه المأكول والمشروب اللذان يضران بصحة الإنسان، فإن فيهما إسرافاً، فلا يختص الإسراف المحظور بحقل خاص في الأكل والشرب، بل

(١) سورة طه، الآية: ١٢.

(٢) في الدر المنثور ٣: ٧٩، أخرج أبو داود عن أبي الأحوص عن أبيه قال: «أتيت رسول الله ﷺ في ثوب درن فقال: ألك مال؟ قال: نعم، قال: من أي المال؟ قال: قد آتاني الله من الإبل والغنم والخيل والرقيق، قال: فإذا آتاك الله فلير أثر نعمة الله عليك وكرامته» وفيه أخرج أحمد ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: لا يدخل النار من كان في قلبه ذرة مثقال من إيمان ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر، قال رجل يا رسول الله ﷺ: إنه يعجبني أن يكون ثوبي غسيلاً ورأسي دهيناً وشراك نعلي جديداً - وذكر أشياء حتى ذكر علاقة سوطه - فمن الكبر ذاك يا رسول الله ﷺ؟ قال: لا، ذاك الجمال إن الله ﷻ جميل يحب الجمال ولكن الكبر من سفه الحق وازدرى الناس، وفيه أخرج ابن سعد عن جندب بن مكيث قال: كان رسول الله ﷺ إذا قدم الوفد لبس أحسن ثيابه وأمر علية أصحابه بذلك.

هو فيهما بكلِّ الأبعاد مادة وكمًّا وكيفاً وصحياً وأي حظر آخر، وقد يفسره بهذه السعة: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾[١].

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ بل يبغضهم، فضلاً عن المبذرين، فـ ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾[٢].

إن التبذير والإسراف إضافة إلى محظورهما الجماعي حيث فيهم جياع معدمون، فيه أيضاً محظور صحي روحياً وبدنياً، لا فحسب الإسراف، بل والشبع فإن «من شبع عوقب في الحال ثلاث عقوبات: يُلقى الغطاء على قلبه، والنعاس في عينه، والكسل على بدنه»[٣]، و«كثرة الطعام تُميت القلب كما تُميت كثرة الماء الزرع»[٤]، فـ «لا تطلب الحياة لتأكل بل اطلب الأكل لتحيا»[٥]، و«لا تجلس على الطعام إلّا وأنت جائع، ولا تقم عنه إلّا وأنت تشتهيه، وجوّد المضغ، وأعرض نفسك على الخلاء فإذا استعملت هذه استغنيت عن الطب»[٦].

ذلك، و«إن من الإسراف أن تأكل كلّ ما اشتهيت»[٧] وهو إسراف في الكيف مهما لم يكن إسرافاً في الكمِّ، و﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ يعم الكيف إلى الكمِّ، وفي الناس من لا يجد كمّاً ولا كيفاً من الطعام.

(١) سورة عبس، الآية: ٢٤.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٧.
(٣) شرح النهج لابن أبي الحديد ٦٧٤.
(٤) المصدر ٨٢٤.
(٥) المصدر ٨٢٤.
(٦) مستدرك النهج ١٦٢.
(٧) الدر المنثور ٣: ٨٠ - أخرج ابن ماجة وابن مردويه والبيهقي عن أنس قال قال النبي ﷺ: . . . وفيه عنه ﷺ قال: إن أكثر الناس شبعاً في الدنيا أطولهم جوعاً يوم القيامة.
وفيه عنه ﷺ قال: ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطن حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن =

وكما أن الأكل والشرب المسرف محرم على الآكل والشارب، كذلك الإيكال والإشراب المسرف ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أكلاً وإيكالاً أم وتصرفات أخرى.

فلقد جمع الطب كلّه بحق الأكل والشرب في نصف آية[١] وعلّه يعم إسراف السلب والإيجاب[٢]، ولكن الإيجاب أضر أن تأكل مسرفاً، وأما ألا

= كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه.
وفيه عنه ﷺ قال: المعدة حوض البدن والعروق إليها واردة فإذا صحت المعدة صدرت العروق بالصحة وإذا فسدت المعدة صدرت العروق بالسقم.
وفي تفسير البرهان ٢: ١٠ عن الكافي عن إسحاق بن عبد العزيز من بعض أصحابه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: نكون بطريق مكة ونريد الإحرام فنطلي ولا يكون معنا نخالة فنتدلك بها من النورة فنتدلك بالدقيق وقد دخلني من ذلك ما شاء الله أعلم به؟
فقال: مخافة الإسراف؟ قلت: نعم، فقال: ليس فيما أصلح البدن إسراف إني ربما أمرت بالنقي فيلت بالزيت فأتدلّك به إنما الإسراف فيما أفسد المال وأضر البدن، قلت: وما الإقتار؟ قال: أكل الخبز والملح وأنت تقدر على غيره، قلت: فما القصد؟ قال: الخبز واللحم واللبن والخل والسمن مرة هذا ومرة هذا.
وفيه عن العياشي عن أبان بن تغلب قال قال أبو عبد الله عليه السلام: أترى الله أعطى من أعطى من كرامته عليه ومنع من منع من هوان به عليه؟ لا - ولكن المال مال الله يضعه عند الرجل ودائع وجوز لهم أن يأكلوا قصداً ويشربوا قصداً ويلبسوا قصداً وينكحوا قصداً ويركبوا قصداً ويعودوا بما سوى ذلك على فقراء المؤمنين ويلموا به شعثهم فمن فعل ذلك كان ما يأكل حلالاً ويشرب حلالاً ويركب حلالاً وينكح حلالاً ومن عدا ذلك كان عليه حراماً ثم قال: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١] أترى أئتمن رجلاً على ماله خول له أن يشتري فرساً بعشرة آلاف درهم ويجزيه فرس بعشرين درهماً ويشتري به جارية بألف دينار ويجزيه جارية بعشرين ديناراً وقال ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

(١) روي أن الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق فقال ذات يوم لعلي بن الحسين بن واقد: ليس في كتابكم من علم الطب شيء والعلم علمان علم الأديان وعلم الأبدان فقال له علي عليه السلام قد جمع الله الطب كله في نصف آية وهو قوله: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ [الأعراف: ٣١] وجمع نبينا الطب في قوله: المعدة بيت الداء والحمية رأس كلّ دواء واعط كلّ بدن ما عودته، فقال الطبيب: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً.

(٢) تفسير البرهان ٢: ١٠ عن العياشي عن هارون بن خارجة قال قال أبو عبد الله عليه السلام: . . .

تأكل مسرفاً فضره أقل إلّا إذا كان مضرّاً كما الأكل، فكلا الأكل والشرب وتركهما إسرافاً أو تبذيراً محرم فإنهما محرمان كضابطة عامة في كافة الحقول.

إذاً فـ ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ﴾ تعم كلّ تجاوز كمّي أو كيفي في الأكل والشرب وما أشبه من مصروفات هي إسرافات، أم وأنحس منها تبذيرات.

فالمواد الدخانية كلها داخلة في حقل الإسراف، أو التبذير، فالجيگارة وما أشبه تنطبق عليها عناوين تالية:

١ - الإسراف، ٢ - أو التبذير، ٣ - ﴿وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ﴾[١] تنطبق عليها لو كان لها نفع بضمن الضرر الأكثر، وقد تعرف علم الطب إلى أضرار الدخان، مما يوحش الإنسان من عواقب السوء للمتعود به[٢].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

(٢) منذ سنين عدة وقد تزايد السرطان في المجتمع البشري، أخذ العلماء الأوروبيون والأمريكيون يحققون بحثاً عن عوامل تزايد السرطان.
ففي سنة ١٩٥٢ جماعة من الأطباء الأمريكيين فحصوا بصور موسعة عن السرطان، فابتدؤوا بمعتادي الدخان، وكانت من نتائج تحقيقاتهم ما فجر العالم من نبئه، أنهم حققوا في ولايات تسع أمريكية، وفحصوا عن أمزجة أناس بين خمسين وسبعين وحصلوا بعد سنة من فحصهم أن أكثرية المبتلين بالسرطان هم المعتادون بالدخان، وقد يقدر بـ ٤٠ / ١٠٠ أكثر من غيرهم، حيث يموتون إثر الحملة القلبية والسرطان الرئوي، وعلى إعلان هذه المزرأة ترك ٥ / ١ مليوناً الدخان عن بكرته. ثم أخذت هذه الغوغائية من أخطار الجيگارة السرطانية انجلترا، وهنا مقالة لجريدة انجليزية طبّية باسم «لانست»:
ليست اليوم من أيام المقالات الحدسية، إنه يوم الجدّ الواقع، فقد ابتلي بالسرطان واحد من (١١) شخصاً كانوا يشربون الجيگارة يومياً ٢٥ - ٥٠.
هذه الجريدة وسائر الجرائد الإنجليزية كانت تستند إلى تحقيقات الدكتور هانري كوهن، فقد أثبت هذا الطبيب أنه يموت في انجلترا سنوياً/ ٠٠٠، ٢٠ شخصاً على أثر السرطان الرئوي، والشخص المتعود على الجيگارة بعدد (٢٥) يومياً يبتلى بالسرطان الرئوي أكثر من غيره ٥ / ١٠٠ - ٦ / ١٠٠ إلى ٣٠ / ١٠٠.
والجريدة الطبية الإنجليزية طلبت من جميع الأطباء أن يحرموا التتن والتنباك، وأخيراً قدم=

فلأن الإسراف في كلِّ حقوله محرم فـ «من سأل الناس شيئاً وعنده ما يقوته يومه فهو من المسرفين»[(١)].

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾:

﴿زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ هي التي خلقها الله لعباده لكي ينتفعوا بها وفق شرعة الله، والضابطة العامة - إذاً - فيها هي الحلّ، إلّا ما أخرجه قاطع النص، فـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[(٢)]، كضابطةٍ الحل العامة، وهنا ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ استنكار شديد على من حرم زينة الله كأصل تقشفاً ورهبانية جاهلة قاحلة كما حصل من جمع من المسلمين، فنزلت الآية تنديداً بهم[(٣)]،

= اقتراح إلى المجلس النيابي البريطاني في أن يمنع بيع الجيگارة للشباب الأقل عمراً من (١٨) سنة.

ومثل هذه التحقيقات أخذت دورها الفعال في فرنسا وسائر البلاد الأوروبية وفي اليابان مثل ذلك، فقد حقّق طبيب ياباني باسم «الدكتور بنجويم ووج» أن في تتن الجيگارة مادة سامة باسم (دايبنزن) إن زرقت جرذ ابتلي بالسرطان، ويضيف الدكتور (ووج) أن هذه المادة هي حصيلة احتراق التتن.

وقد جرّب ذلك الزرق في/ ٤٠٠٠ جرذاً وبعد ٤٢ يوماً ابتليت كلها بالسرطان. وعلى أثر هذه التجربات الغوغائية ترك جمع كثير من الناس المعتادين بالدخان في كلّ أنحاء العالم ولا سيما في أمريكا وانجلترا، تركوا الجيگارة لحدٍّ سبّب خسارة على سوق الجيگارة، لحدّ بعث أصحاب معامل الجيگارة مبعوثاً باسم (الكساندر ماكسويل) إلى المقامات المعنية دفاعاً عن منافعهم.

(١) راجع إلى ص ٨٥ حاشية (٢).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٩.

(٣) في تفسير الفخر الرازي ١٤: ٦٣ روي عن عثمان بن مظعون أنه أتى رسول الله ﷺ وقال: غلبني حديث النفس، عزمت على أن أختصي فقال: مهلاً يا عثمان إن خصاء أمتي الصيام، قال: فإن نفسي تحدثني بالترهب، قال: إن ترهب أمتي القعود في المساجد لانتظار الصلاة، فقال: تحدثني نفسي بالسياحة، فقال:

سياحة أمتي الغزو والحج والعمرة، فقال: إن نفسي تحدثني أن أخرج مما أملك، فقال: =

وعلى حدِّ تعبير الرسول ﷺ توبيخاً لهم: «لكني أصوم وأفطر وأصلّي وأرقد وأتزوج النساء»[١].

ذلك، والأصل في ﴿زِينَةَ ٱللَّهِ... وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ﴾ أنها ﴿هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾ مهما كانت خليطة غير خليصة في الحياة الدنيا، فـ ﴿هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في الحياة الدنيا كأصل مرضي حال كونها ﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾[٢].

فالحياة الدنيا برمتها الزينة ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[٣] إنها كما يروى عن إمام المتقين علي عليه السلام: «من أبصر بها بصرته ومن أبصر إليها أعمته» فالتذرع بزينة الحياة الدنيا لزينة الحياة الأخرى محبور، والإقبال عليها والإخلاد إليها محظور.

= الأولى أن تكفي نفسك وعيالك وأن ترحم اليتيم والمسكين فتعطيه أفضل من ذلك، فقال: إن نفسي تحدثني أن أطلّق خولة، فقال: إن الهجرة في أمتي هجرة ما حرم الله، قال: فإن نفسي تحدثني أن لا أغشاها، قال: إن المسلم إذ أغشى أهله أو ما ملكت يمينه فإن لم يصب من وقعته تلك ولداً كان له وصيفاً في الجنة وإذا كان له ولد ومات قبله أو بعده كان له قرة عين وفرح يوم القيامة وإن مات قبل أن يبلغ الخنث كان له شفيعاً ورحمة يوم القيامة، قال: فإن نفسي تحدثني أن لا آكل اللحم، قال: مهلاً إني آكل اللحم إذا وجدته ولو سألت الله أن يطعمنيه كلّ يوم فعله، قال: فإن نفسي تحدثني أن لا أمس الطيب، قال: مهلاً فإن جبرئيل أمرني بالطيب غباً وقال: لا تتركه يوم الجمعة، ثم قال: يا عثمان! لا ترغب عن سنتي فإن من رغب عن سنتي ومات قبل أن يتوب صرفت الملائكة وجهه عن حوضي.

(١) مفتاح كنوز السنة نقلاً عن بخ - ك ٦٧ ب ١ و٨٩، ك ٧٨ ب ٨٤، مس - ك ١٦ ح ٥ - ٨ تر - ك ٩ ب ٢، نس - ك ٢٦ ب ٤ مج - ك ٩ ب ٢، مى - ك ١١ ب ٣ عد - ج ١ ق ٢ ص ٩٥ ج ٣ ق ١ ص ٢٨٧ ج ٤ ق ٢ ص ٨ حم - أول ص ١٧٥ و١٧٦ و١٨٣ ثان ص ١٥٨ و٣ ١٨٧ و١٩٤ و١٩٥ و١٩٧ و١٩٨ و١٩٩ و٣ ٢٠٠ و٢١٦ و٢٤٥ و٢٨٩، ثالث ص ١٥٨ و٢٤١ و٢٨٥ خامس ص ١٧ و٢٨ و٤٠ و٢ ٤٨ و٥٢ و٤٠٩ سادس ص ٩١ و٩٧ و٢ ١٠٦ و١١٢ و١٢٥ و١٥٧ و٢٢٦ و٢٥٢ و٢ ٢٦٨ وط - ح ٣٢ و٢١٩.

(٢) فهنا ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأعراف: ٣٢] كما هي ظرف لـ ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الأعراف: ٣٢] كذلك خبر لـ ﴿هِيَ﴾.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٧.

ذلك ولقد وبخ مجاهيل من المتقشفين البعض من أئمة الدين على جميل الثياب فانعكس عليهم الأمر بتوبيخ الله في هذه الآية[١] مما يدل على أن الانتفاع من زينة الله في غير محظور محبور، مأكلاً ومشرباً وملبساً ومسكناً ومنكحاً.

فـ «اعلموا يا عباد الله أن المتقين جازوا عاجل الخير وآجله، شاركوا أهل الدنيا في دنياهم ولم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم، أباحهم الله في الدنيا ما كفاهم به وأغناهم... سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت، وأكلوها بأفضل ما أكلت، شاركوا أهل الدنيا في دنياهم فأكلوا معهم طيبات ما يأكلون وشربوا من طيبات ما يشربون، ولبسوا أفضل ما يلبسون، وسكنوا من أفضل ما يسكنون، وتزوجوا من أفضل ما يتزوجون، وركبوا من أفضل ما يركبون، وأصابوا اللذة مع أهل الدنيا وهم غداً جيران الله، يتمنون عليه فيعطيهم ما يتمنون، لا ترد لهم دعوة، ولا ينقص لهم نصيب من اللذة، فإلى هذا يا عباد الله يشتاق إليه من كان له عقل»[٢].

---

(١) نور الثقلين ٢: ٢١ عن الكافي علي بن محمد بن بندار عن أحمد بن أبي عبد الله عن محمد بن علي رفعه قال: مر سفيان الثوري في المسجد الحرام فرأى أبا عبد الله عليه السلام وعليه ثياب كثيرة القيمة حسان، فقال: والله لآتينه ولأوبخنّه فدنا منه فقال: يابن رسول الله صلى الله عليه وآله ما لبس رسول الله مثل هذا اللباس ولا علي عليه السلام ولا أحد من آبائك، فقال له أبو عبد الله عليه السلام: كان رسول الله صلى الله عليه وآله في زمان قتر مقتر وكان يأخذ لقتره وقتاره وإن الدنيا بعد ذلك أرختّ عزاليها فأحق أهلها بها أبرارها ثم تلا ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢] فنحن أحق من أخذ منها ما أعطاه الله، غير أني يا ثوري على ما ترى عليّ من ثياب إنما لبسته للناس، ثم اجتذب يد سفيان فجرها ثم رفع الثوب الأعلى وأخرج ثوباً تحت ذلك على جلده غليظاً فقال: هذا لبسته لنفسي غليظاً وما أريته للناس، ثم اجتذب ثوباً على سفيان أعلاه غليظ خشن وداخل الثوب لين فقال: لبست هذا الأعلى للناس ولبست هذا لنفسك تسترها.

(٢) نور الثقلين ٢: ٢٣ في أمالي الشيخ الطوسي بإسناده إلى أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل يقول فيه: . .

ذلك، ولما يُسأل الإمام علي عليه السلام: فعلى مَ اقتصرت في مطمعك على الجشوبة، وفي ملبسك على الخشونة؟ يقول: ويحك إن الله عز وجل فرض على أئمة العدل أن يقدّروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيغ بالفقير فقره..[1].

ويقول عن نفسه: ألا وإن لكلِّ مأموم إماماً يقتدي به، ويستضيء بنور علمه، ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياكم بطهريه - ثوبيه الباليين - ومن طُعمه بقرصيه، ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك ولكن أعينوني بورع واجتهاد، وعفة وسداد، فوالله ما كنزت من دنياكم تبراً، ولا ادّخرت من غنائمها وفراً، ولا أعددت لبالي ثوبي طِمراً، ولا حُزت من أرضها شبراً، ولا أخذت منه إلّا كقوت أتانٍ دَبِرَة، ولهي في عيني أوهى وأهون من عفصة مَقِرة... ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل، ولُباب هذا القمح، ونسائج هذا القزِّ، ولكن هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلى تخيُّر الأطعمة، ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص، ولا عهد له بالشبع، أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى، وأكباد حرّى، أو أكون كما قال القائل:

وحسبك داء أن تبيت ببطنة ... وحولك أكباد تحنُّ إلى القِدِّ

أأقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر،

---

(١) المصدر ٢٤ عن الكافي في احتجاج أمير المؤمنين عليه السلام على عاصم بن زياد حين لبس العبا وترك الملا وشكاه أخوه الربيع بن زياد إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنه قد غمّ أهله وأحزن ولده بذلك، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: عليّ بعاصم بن زياد فجيء به فلما رآه عبس في وجهه فقال له: أما استحييت من أهلك، أما رحمت ولدك، أترى الله أحل لك الطيبات وهو يكره أخذك منها؟ أنت أهون على الله من ذلك، أو ليس الله يقول: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١﴾ [الرحمٰن: ١٠-١١] أوليس يقول: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ - إلى قوله: - يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرَّحمٰن: ١٩-٢٢] فباللّه لابتذال نعم الله بالفعال أحب إليه من ابتذالها بالمقال وقد قال عز وجل: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضّحى: ١١] فقال عاصم: ... وفي نهج البلاغة مثله بزيادة: يا عديّ نفسه لقد استهان بك الخبيث...

أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش، فما خُلقت ليشغلني أكل الطيبات، كالبهيمة المربوطة همها عَلَفها، أو المرسلة شغلها تقمُّمها، تكترش من أعلافها، وتلهو عما يراد بها، أو أترك سُدىً وأهمل عابثاً، أو أجُرَّ حبل الضلالة، أو أعتسف طريق المتاهة...» (٢٨٤) -.

ذلك، وفيما يُروى عن رسول الهدى ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» حيث شبه الدنيا بالسجن للمؤمن إذ قصر فيها خطوة عن اللذات المرسلة، وكبح لجامه عن الشهوات المقبلة، وحصر نفسه عن التسرع إلى ما تدعو إليه الدواعي، والأهواء المردية، وكان زمام نفسه وخطامها وهاويها وإمامها خائفاً خوف الجاني المرعوب، والطريد المطلوب، في عصبته عملوا للمعاد، وقطفوا للزاد، تحسبهم من طول سجودهم أمواتاً، ومن طول قيامهم نباتاً.

وشبهها ﷺ بالجنة للكافر من حيث استوعب فيها شهواته، واستفرغ لذاته، وقضى فيها الأوطار، وتعجَّل المسارَّ، واستهواه عاجل حطامها، وريق جماعها، فنسي العاقبة، واستهان بالمغبة، فكان ميِّت الأحياء، كما كان المؤمن حي الأموات[1].

وإليكم من زهادة المرسلين عليهم السلام برواية علي أمير المؤمنين عليه السلام: «وإن شئت ثنيت بموسى كليم الله ﷺ حيث يقول: رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير» والله ما سأله إلّا خبزاً يأكله لأنه كان يأكل بقلة الأرض، ولقد كانت خضرة البقل تُرى من شفيف صفاق بطنه لهُزاله وتشدُّب لحمه[2] -

(١) يقول السيد الشريف الرضي في المجازات النبوية (٣٦) بعد هذا التفسير للحديث: من أحسن ما سمعته في هذا المعنى أن بعض الزهاد المنقطعين طلب القوت من بعض الراغبين المفتونين، فقيل له في ذلك، فقال: أنا مسجون وهو مطلق، وهل يأكل المسجون إلّا من يد المطلق.

(٢) (الخطبة ١٥٨).

«ولقد دخل موسى بن عمران - ومعه أخوه هارون عليه السلام على فرعون وعليهما مدارع الصوف وبأيديهما العصيُّ، فشرطا له إن أسلم بقاء ملكه ودوام عزه فقال: ألا تعجبون من هذين يشرِطان لي دوام العزِّ وبقاء الملك وهما بما ترون من حال الفقر والذل؟ فهلا ألقي عليهما أساور من ذهب، إعظاماً للذهب وجمعه واحتقاراً للصوف ولبسه» (١٩٠) -.

«وإن شئت ثلثت بداود - صلى الله عليه وسلم - صاحب المزامير وقارئ أهل الجنة، فلقد كان يعمل سفاسف الخوص بيده ويقول لجلسائه: أيكم يكفيني بيعها؟ ويأكل قرص الشعير من ثمنها» (١٥٨) -.

«وإن شئت قلت في عيسى بن مريم عليه السلام، فلقد كان يتوسد الحجر، ويلبس الخَشِن ويأكل الجَشِب، وكان إدامه الجوع، وسراجه بالليل القمر، وظِلاله في الشتاء مشارق الأرض ومغاربَها، وفاكهته وريحانته ما تنبت الأرض للبهائم، ولم تكن له زوجة تفتنه، ولا ولد يحزنه، ولا مال يلفته، ولا طمع يُذله، دابته رجلاه، وخادمه يداه» (١٥٨) -.

ومن ثم نبينا صلى الله عليه وآله وسلم فـ «قد حقَّر الدنيا وصغَّرها، وأهون بها وهوَّنها، وعلم أن الله زواها عنه اختياراً، وبسطها لغيره احتقاراً، فأعرض عن الدنيا بقلبه، وأمات ذكرها عن نفسه، وأحب أن تغيب زينتها عن عينه، لكيلا يتخذ منها رياشاً، أدير جوفيها مقاماً بلغ عن ربه معذراً، ونصح لأمته منذراً، ودعا إلى الجنة مبشراً، وخوف من النار محذرا» (١٠٧) -.

«. . . خرج من الدنيا خميصاً، وورد الآخرة سليماً، لم يضع حجراً على حجر حتى مضى لسبيله وأجاب داعي ربه. . .» (١٥٨).

«ولقد كان في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كافٍ لك في الأسوة، ودليل لك على ذم الدنيا وعيبها، وكثرة مخازيها ومساويها، إذ قبضت عنه أطرافها، ووطئت لغيره أكنافها، وفطم عن رضاعها، وزوي عن زخارفها» (١٥٨) ـ